[560] الآية يَـأَيـّـُهـَا النـّـَاسُ إِنـّـَا خَـلَـقْـنَـاكُم مِـن ذَـكَـر وَأُنثَـى وَجَـعَـلْـنَـكُمْ شُعُوباً وَقَـبَـائِـلَ لِـتَـعَـارَفُواْ إِنـّـَ أَكْـرَمَـكُمْ عِـندَ اللهِ أَتْـقَـاكُمْ إِنـّـَ اللهَ عَـلِـيمٌ خَـبِـيرٌ(13) التـّفسير التقوى أغلى القيم الإنسانية: كان الخطاب في الآيات السابقة موجـّهاً للمؤمنين وكان بصيغة: (يا أيـّها الذين آمنوا) وقد نهى الذكر الحكيم في آيات متعدّدة عمـّا يُوقِع المجتمع الإسلامي في خطر، وتكلـّم في جوانب من ذلك. في حين أنّ الآية محل البحث تخاطب جميع الناس وتبيـّن أهم أصل يضمن النظم والثبات، وتميـّز الميزان الواقعي للقيم الإنسانية عن القيم الكاذبة والمغريات الباطلة. فتقول: (يا أيـّها النـّاس إنـّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا). والمراد بـ(خلقناكم من ذكر وأنثى) هو أصل الخلقة وعودة أنساب الناس إلى "آدم وحواء"، فطالما كان الجميع من أصل واحد فلا ينبغي أن تفتخر قبيلة على أُخرى من حيث النسب، وإذا كان الله سبحانه قد خلق كلّ قبيلة وأولاها خصائص ووظائف معيـّنة فإنـّما ذلك لحفظ نظم حياة الناس الإجتماعية! لأنّ هذه الإختلافات مدعاةً لمعرفة الناس، فلو كانوا على شاكلة واحدة ومتشابهين لساد الهرج والمرج في المجتمع البشري أجمع. وقد اختلف المفسـّرون في بيان الفرق بين "الشعوب" جمع شعب ـ على زنة صعب ـ (الطائفة الكبيرة من الناس) و"القبائل" جمع قبيلة فاحتملوا احمالات متعدّدة: قال جماعة إنّ دائرة الشعب أوسع من دائرة القبيلة، كما هو المعروف في العصر الحاضر أن يطلق الشعب على أهل الوطن الواحد. وقال بعضهم: كلمة "شعوب" إشارة إلى طوائف العجم، وأمـّا "القبائل" فإشارة طوائف العرب. وأخيراً فإنّ بعضهم قال بأنّ "الشعوب" اشارة إلى انتساب الناس إلى المناطق "الجغرافية" و"القبائل" إشارة إلى انتسابهم إلى العرق والدم. لكنّ التـّفسير الأوّل أنسب من الجميع كما يبدو! وعلى كلّ حال فإنّ القرآن بعد أن ينبذ أكبر معيار للمفاخرة والمباهات في العصر الجاهلي ويُلغي التفاضل بالأنساب والقبائل يتـّجه نحو المعيار الواقعي القيم فيضيف قائلاً: (إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم). وهكذا فإنّ القرآن يشطب بالقلم الأحمر على جميع الإمتيازات الظاهرية والمادية، ويعطي الأصالة والواقعية لمسألة التقوى والخوف من الله، ويقول إنـّه لا شيء أفضل من التقوى في سبيل التقرّب إلى الله وساحة قدسه. وحيث أنّ "التقوى" صفة روحانية وباطنية ينبغي أن تكون قبل كلّ شيء مستقرّةً في القلب والروح، وربـّما يوجد مدّعون للتقوى كثيرون والمتـّصفون بها قلة منهم، فإنّ القرآن يضيف في نهاية الآية قائلاً: (إنّ الله عليم خبير). فالله يعرف المتـّقين حقـّاً وهو مطـّلع على درجات تقواهم وخلوص نيـّاتهم

وطهارتهم وصفائهم، فهو يكرمهم طبقاً لعلمه ويثيبهم، وأمّا المدّعون الكذَبَة فإنّه يحاسبهم ويجازيهم على كذبهم أيضاً. * * *